الحدث

شوقي عشقوتي

الحرب الإسرائيليّة ـ الإيرانيّة "آخر حروب المنطقة": هل نشهد شرق أوسط جديداً بقيادة أميركيّة؟

انه الزلزال الرابع في منطقة الشرق الاوسط في اقل من عامين. بعد "طوفان الاقصى" وحرب غزة، وبعد اغتيال الامين العام لحزب الله السيد حسن نصرالله والقيادة العليا للحزب، وبعد سقوط نظام بشار الاسد في سوريا... حدث زلزال عنيف مع تفجر الحرب بين اسرائيل وايران، ستكون له ارتدادات قوية في ارجاء المنطقة، معلنا بدء العد العكسي لولادة "شرق اوسط جديد"

هذه الحرب عنوانها تفكيك البرنامج النووي الايراني، لكن عمقها هو تفكيك المنطقة واعادة تركيب خارطتها الجيوسياسية. واذا كانت الحرب الروسية ـ الاوكرانية شغلت اوروبا والعالم، فان الحرب الاسرائيلية ـ الايرانية احدثت اهتزازا واضطرابا واسعا في الشرق الاوسط والعالم. حرب مفتوحة مباشرة بدت من دون سقوف وخطوط حمر. حرب تختلف عن كل حروب المنطقة الحديثة. لم تكن مثل حرب غزة او حرب لبنان، وليست ايضا مثل الحرب الاميركية في العراق، ومثل حرب العراق وايران في الثمانينات. هذه حرب مختلفة استراتيجيا وعسكريا سيكون لها تداعيات على ايران واسرائيل وكل المنطقة. في قلب المواجهة الشرسة الدائرة يقف صراع وجودي: اسرائيل ترى في ايران تهديدا وجوديا دائما، وايران ترى في حرب اسرائيل عليها اكثر من استهداف لبرنامجها النووي.

التهديد لا تراه اسرائيل نوويا فقط، وانما يشمل برنامج الصواريخ الباليستية ومنظومة النفوذ الايراني في المنطقة: من حزب الله في لبنان الى الحوثيين في اليمن، ومن الميليشيات في العراق الى الخلايا النائمة في سوريا. والحرب التي تخوضها ايران لم تعد لحماية التخصيب والمفاعلات والبرنامج النووي، وانما للدفاع عن بقاء النظام الاسلامي ذاته بعدما بات البرنامج النووي احد اهم مصادر الشرعية الوطنية والاقليمية، واي تراجع فيه سيعد خضوعا وضعفا داخليا. حرب لا يمكن لاي طرف ان يحسمها ويربحها بالضربة القاضية، ولا تستطيع اي دولة كبرى ان تضمن عدم انزلاقها الى صراع شامل يعيد رسم ملامح وخارطة الشرق الاوسط.

الحرب اسفرت في فترة قصيرة عن خسائر كبيرة وتطورات هائلة: الايرانيون فقدوا قادة الصف الاول وتعرضت منشاتهم النووية والصاروخية لاضرار كبيرة. الاسرائيليون هالهم منظر الابنية المدمرة والمنشات النفطية المشتعلة الذي يرونه للمرة الاولى في تل ابيب وحيفا، وشعروا انهم دخلوا الحرب الفعلية، وان الجولات السابقة في غزة ولبنان لم تكن "الا نزهة". كلاهما اعتبرها حربا مصيرية وجودية. اخر حروب المنطقة، هي اول حرب عن بعد بين دولتين غير متجاورتين، تفصل بينهما مسافة جغرافية بعيدة لا مجال فيها لعمليات توغل وهجوم برية. وهي اول حرب بين دولتين تحاربان للمرة الاولى على اراضيهما: اسرائيل التي كانت تحارب خارج ارضها وحتى في حرب غزة دخلت الحرب الى بيتها الداخلي، وايران التي كانت تحارب عبر حلفائها ووكلائها، دخلت الحرب الى ارضها الواسعة من الباب الضيق بعد انهيار خطوط الدفاع المتقدمة التي اقامتها في لبنان وسوريا.

ابرز الملاحظات والاستنتاجات التي تمخضت عنها هذه الحرب:

1- العنصر الاول الذي ساهم في انجاح الهجوم الاسرائيلي هو "عنصر المباغتة"، بعد عملية التضليل التي حدثت بتعيين جولة مفاوضات جديدة بين ايران والولايات المتحدة في مسقط، الامر الذي وضع ايران في حال استرخاء عسكري وامني. وربما تكون ايران وقعت في خطا التقدير عندما استبعدت هجوما اسرائيليا، وتوقعت ان يقتصر الامر على تهديد اسرائيلي وضغوط تستخدمها واشنطن لدفع ايران الى تقديم تنازلات، وايضا عندما بالغت في الرهان على خلاف بين نتنياهو وترامب في شان التعامل مع ملفها النووي، والى حد التكهن بان ترامب لا يريد الحرب وقادر على منع اسرائيل من شن حرب طالما المفاوضات جارية، وان اسرائيل لا يمكنها ان تبادر الى الحرب بمفردها وتحتاج الى موافقة ومشاركة اميركية.

والى عنصر "المباغتة" (في التوقيت)، يضاف عنصر المفاجاة (في الهدف). كان الاعتقاد ان اي هجوم اسرائيلي سيكون هدفه المنشات النووية، وسيركز على ضرب البرنامج النووي الايراني. لكن اسرائيل اختارت ان يكون الهدف الاول للهجوم هو ضرب القيادة الايرانية لضعضعة مركز القيادة والقرار والسيطرة.

2- ما جرى لا يمكن فصله عما حدث في الاشهر التسعة الماضية من عملية البيجر واغتيال قادة حزب الله وامينه العام حسن نصرالله الى تدمير غزة واغتيال قادة حماس،

نتنياهو حدد هدف الحرب بانهاء خطر ايران: البرنامج النووي، الصواريخ الباليستية، النفوذ الاقليمي

الى سقوط نظام الاسد. ما جرى بين اسرائيل وايران لم يكن مجرد تصعيد وجولة قتال، وانما حرب فعلية تعكس التجسيد العملي للاستراتيجيا الاسرائيلية وضعت منذ سنوات وتعرف بـ"استراتيجيا الاخطبوط". تقوم هذه العقيدة على تصور مفاده ان ايران ليست مجرد دولة ذات نفوذ اقليمي، وانما "اخطبوط" له راس في طهران واذرع تمتد عبر لبنان وسوريا واليمن والعراق وغزة، وتشكل تهديدا مباشرا يجب التصدي له ضمن خطة شاملة ومتدرجة، وقائمة على اساس تحول نوعي في عقيدة المواجهة الاسرائيلية، حيث لم يعد الردع كافيا، بل بات الهدف هو شل القدرة على بناء التهديد من جذوره. هذه الاستراتيجيا دخلت مرحلتها الحاسمة: ضرب الراس نفسه. فبعد ان تم انهاك الاذرع او تحييدها، اتجهت الضربات مباشرة نحو العمق الايراني، نحو المنشات، والقيادات، والبنية التحتية الحيوية... كان نتنياهو وضع نصب عينيه هدف التخلص من الخطر النووي الايراني في عهد ترامب الحليف الاوثق لاسرائيل، والذي اعطاها ما لم يعطه اي رئيس اميركي من قبل. وعندما سنحت له الفرصة، لم يتاخر ولم يتردد في التقاطها.

3- نجحت اسرائيل في تسديد الضربة الاولى والحقت خسائر كبيرة ونوعية بايران. اثبتت تفوقا في سلاح الجو الى حد السيطرة على الاجواء من غرب ايران حتى العاصمة طهران.

اما ايران، فانها نجحت في استيعاب الضربة الاولى، وفي استعادة توازنها وتسديد ضربات صاروخية مدمرة. وظهر ان نقطة قوتها الاساسية والوحيدة هي الصواريخ الباليستية التي امتنعت عن استخدامها من قبل حتى لا تتورط في حرب مباشرة مع اسرائيل، لكنها استخدمتها اليوم بعدما استدرجت وجرت الى حرب لم تكن تريدها ولم تتوقعها. نجحت ايران عبر هذه الضربات، وفي المرحلة الاولى على الاقل، في اقامة "توازن رعب" ووضع الاسرائيليين امام مشاهد صادمة، خصوصا وان ◀

◄ صواريخها تضرب مواقع عسكرية ومنشات حيوية في النقب وتل ابيب وحيفا وتصيب اهدافها.

حددت ايران موقفها في ان لا عودة الى طاولة المفاوضات ولا مفاوضات تحت النار، ولا خطوط حمر تحكم رد ايران ودفاعها عن النفس، بعدما تجاوزت اسرائيل كل الخطوط.

• لا تراجع عن التمسك بحق ايران في التخصيب لاغراض سلمية.

اما اسرائيل، فانها تحركت بين حدين، والمؤشرات دلت الى ان ما جرى يهدف الى امرين:

• اما فرض تسوية بالقوة تنهي البرنامج النووي الايراني وتترك النظام ليتاكل من الداخل.

• اما الذهاب الى مواجهة كبرى، حيث يمسك الرئيس ترامب بزمام الامور وفي يده القرار، اما بالذهاب الى الاتفاق بشروطه مقابل وقف الحرب، او الذهاب الى الحرب لاسقاط النظام.

4- بات في حكم المؤكد ان الحرب التي شنتها اسرائيل على ايران لم تكن لتحصل لولا موافقة الرئيس ترامب الذي كان على اطلاع على كل تفاصيل العملية واهدافها، واعطى نتنياهو الضوء الاخضر للحرب لاسباب ثلاثة:

• وصول المفاوضات الثنائية بين واشنطن وطهران الى طريق مسدود بعد رفض طهران مقترح ترامب واستهلاك مهلة الـ60 يوما التي حددها كي تبرم اتفاق نوويا جديدا.

• اقناع نتنياهو ترامب بأن هناك نافذة زمنية ضيقة مفتوحة لضرب المنشات النووية لايران قبل وصولها الى مرحلة انتاج قنبلة نووية، مع بلوغ التخصيب نسبة عاليه تسمح لها بذلك. وجاء تقرير الوكالة الدولية للطاقة الذرية ليدعم موقف نتنياهو.

• اعتقاد ترامب بان الهجمات الاسرائيلية ستفيده في اضعاف ايران واخضاعها. لم يخف ترامب اعجابه بالعمل الجيد

الحرب منسقة بين نتنياهو وترامب: تفكيك المنظومة النووية ام اسقاط النظام الاسلامي؟

الذي قام به نتنياهو، ولم يخف نتنياهو الدور الاميركي في الحرب وانما اثنى عليه وبدا نتنياهو مزهوا بالانجازات التي حققها الجيش الاسرائيلي، ودفعته لرفع سقف طموحاته واهدافه التي اختزلها بـ"انهاء الخطر الايراني" وبات يشمل انهاء منظومة البرنامج النووي والصواريخ الباليستية ونفوذ ايران الاقليمي او ما يسميه "محور الشر".

بدا جليا ان خطة الاغراق التي تعرضت لها ايران، من خلال استهداف درعها الدفاعي ضد الطيران والصواريخ، ونخبة قادتها العسكريين، واهم علمائها النوويين، عبر ادوات مختلفة، من داخل البلاد وخارجها، تهدف الى تقطيع اوصال القيادة والسيطرة من جهة، وازالة عوائق الاستهداف، ومحاولة واد امكانية ذهاب ايران نحو خيار صناعة القنبلة النووية بسرعة. وكانت لحظة استثنائية في تاريخ ايران الحديث. احداث، بكثافتها، كانت الاقسى في العقود الخمسة التي حكم فيها نظام الجمهورية الاسلامية. كانت حملة عسكرية لفرض وقائع سياسية مرتبطة بالملف النووي، وكانت حربا لتغيير النظام.

الحرب الاسرائيلية ـ الايرانية هي اخر حروب المنطقة، وبعدها ترتسم معالم شرق اوسط جديد بقيادة اميركية... آخر الحروب كانت الاخطر والاسرع... الاخطر لانها كانت حربا تدميرية وتختزن كل عناصر التحول الى حرب اقليمية واسعة. والاسرع لان طرفيها، اسرائيل وايران، لم يكونا قادرتن على تحمل تكاليفها واعبائها، وعلى الاستمرار بها لفترة طويلة... وتأكد منذ الايام الاول للحرب انها مسالة اسابيع لا اشهر، وانها حرب لا يمكن لاحد ان يربحها بالضربة القاضية، وان يحسمها عسكريا.

هذه الحرب توقفت في اللحظة وعند النقطة التي صار توقفها مصلحة للجميع وصار استمرارها خطرا على الجميع. اسرائيل شعرت انها تنزلق الى حرب استنزاف طويلة، وايران شعرت، خصوصا بعد الضربة الاميركية لمنشاتها النووية، انها تورطت في حرب غير متكافئة لا تقف عند حدود تفكيك برنامجها النووي، وانما تذهب الى تفكيك نظامها الذي يقاتل على ارضه وفي بيته بعد انهيار الدفاعات المتقدمة والخطوط الامامية... اما ترامب، فانه اكتفى بالضربة الكبيرة ضد المنشآت النووية الثلاث واستوعب الرد الايراني على القاعدة الاميركية وتفهمه، ليثبت انه لا يريد الذهاب الى حرب، وانه ليس رجل حروب وانما رجل تسويات وصفقات، وانه صاحب مبدا استخدام القوة من اجل السلام...

نجح ترامب في ادارة الصراع الاسرائيلي ـ الايراني وفي قطف ثمار الحرب التي عنوانها وهدفها المباشر هو تفكيك البرنامج

النووي، لكن عمقها وهدفها البعيد هو تفكيك المنطقة واعادة تركيب خارطتها الجيوسياسية وعلى اساس تغييرات تحدث داخل الدول وفي انظمتها وليس في تكوينها وحدودها. والان بات ترامب محكما سيطرته على الشرق الاوسط بعدما كان ربط اقتصاديا وماليا واستراتيجيا مع دول الخليج في زيارته التاريخية قبل شهرين او اقل، ونجح بفعل هذا الرابط وهذه الحرب في الحد من نفوذ روسيا والصين، وفي اخضاع ايران وترويض اسرائيل وحملها على الانخراط في مشروعه للشرق الاوسط الجديد القائم على مبدا "الاقتصاد اولا"، ومفهوم الامن الاقتصادي وتحت عنوان "المسار الابراهيمي".

في حسابات الربح والخسارة، دونالد ترامب هو الرابح الاكبر والمستفيد الاول من هذه الحرب، وبات مؤهلا للحصول على جائزة نوبل للسلام بعدما اخرج الشرق الاوسط من حرب مدمرة، ويتجه بعد ذلك لوقف الحرب الروسية ـ الاوكرانية. وربما لعبت روسيا دورا في ترويض ايران والدفع باتجاه نهاية سريعة للحرب مقابل تقديمات وتسهيلات حصلت عليها في اوكرانيا.

الرابح الثاني هو بنيامين نتنياهو الذي يمضي قدما في احراز انجازات ونجاحات متتالية كانت بدات مع تدمير حماس في غزة، وضرب حزب الله في لبنان، واسقاط نظام بشار الاسد، والان انهاء البرنامج النووي الايرانية وازالة الخطر او الهاجس الايراني الذي لازم اسرائيل منذ سنوات وعقود... كان نتنياهو، ومنذ البداية، مؤيدا لضرب البرنامج النووي عسكريا، وضد اي اتفاق نووي مع ايران، ولما حانت له الفرصة المثالية التي لا تتكرر في ظل رئيس اميركي متحمس لاسرائيل وايران ضعيفة، اقتنص الفرصة وفعلها وخاض حربا سريعة مباغتة معدة جيدا، بدت نسخة مكبرة للحرب التي شنتها ضد حزب الله بالطريقة ذاتها وبحجم اختراقات امنية واستخباراتية مماثل، وتفوق تكنولوجي هائل...

لم يسبق ان حازت افعال رئيس الوزراء، بنيامين نتنياهو، على تاييد في الشارع الاسرائيلي مثل ما حظيت به الحرب على ايران، رغم التدمير الذي اصاب تل ابيب وحيفا ومدن اخرى. ففي استطلاع اعلنه "المعهد الاسرائيلي للديمقراطية"، قبل ايام، جاء ان 82 في المئة من المواطنين اليهود يؤيدون هذه الحرب، وفقط 4 في المئة يعارضونها. وحسب استطلاع القناة 13، فقد ارتفعت مقاعد حزب الليكود من 24 مقعدا في الاستطلاع الذي سبق الى 27 مقعدا، ومع تسجيل تراجع لجميع الاحزاب الاخرى. وبالتالي وفي حال حصول انتخابات الان فان حزب الليكود يعود ليصبح اكبر حزب في الكنيست، ويكون نتنياهو نجح ليس فقط في ترميم مكانته السياسية، بل في انتزاع تأييد لاندفاعته في اتجاه تغيير وجه المنطقة.

اما ايران، فانها خرجت خاسرة من هذه الحرب. خسرت الحرب ولكن لم تُهزم لمجرد انها نجحت في انقاذ نظامها وحيازة حيز وهامش الاندماج مجددا في النظام الاقليمي والعالمي، وانها عرفت متى توقف الحرب وتنسحب منها. ايران مارست سياسة الحد من الخسائر وتعرف ان لا مجال لتحقيق ارباح ومكاسب في هذه الحرب الوجودية التي طرحت مستقبل الجمهورية الاسلامية على بساط البحث، ووضعتها تحت امتحان صعب وتحد هو الاخطر منذ قيامها قبل نحو 50 عامًا... ولكن النظام الايراني خرج من هذه الحرب مثخنا بالجراح ويواجه تحدي البقاء والقدرة على تجاوز واستيعاب الخسائر واعادة بناء قدراته ووضعيته ودوره، وعدم تعريض نفسه لتاكل تدريجي من الداخل عندما يحين بعد الحرب اوان المساءلة والمحاسبة...

ايران كانت وصلت الى هذه الحرب منهكة القوى بعدما خسرت اذرعها وحلفاءها الاقليميين، واولهم نظام الاسد... وفي خلال الحرب انكشف الامر عن ضعف جهوزيتها وقدراتها العسكرية التي لم تعوضها القوة الصاروخية، وعن ضعف تحالفاتها وعلاقاتها الدولية، لدرجة ان ايران بدت وحيدة من دون حلفاء، وفي مقدمهم روسيا، فضلوا التفرج بدل التدخل، وان يلعبوا دور الوسيط بدل الطرف... انتهت الحرب ويبقى السؤال: هل يستمر النظام الايراني الذي فقد نقاط قوته ومقومات مشروعه: تصدير الثورة والنفوذ الاقليمي والبرنامج النووي، وربما البرنامج الصاروخي الباليستي... ام بدا عده العكسي ودخل مرحلة "بداية النهاية"...؟!